نشر الخريطة

قصة الريادة
خلال خمس آلاف سنة

« هو الذي جعل لكم
الارض ذلولاً فامشوا
في مناكبها ..... » الآية

ان تاريخ الريادة ينطوي على قصة من أعجب القصص، قوامها إقدام لا يثنى، ومغامرة لا تردها أمام الخطر، وشوق الى كشف المجهول وسواء أكان الباعث على الريادة طلب المجد أم توسيع نطاق العلم أم البحث عن العطور والافاويه أم الرغبة في بقعة أرض يرفع عليها علم امة مستعمرة، فالريادة ردّ الانسان على ما تحيطه به الطبيعة من الالغاز وتوجيهه اليه من التحدي. ان استجلاء الاسرار التي تنطوي عليها الاشعة الكونية، ونوى الذرات، والتحليق في الجو بغية الوقوف على حقائق الطبقة العليا من الهواء، ومقاساة السغب والتعب والقيظ والقر، حوالي القطبين او في قلب افريقية وصحاري آسية — كلّ ذلك من الريادة بأوسع معانيها. وغرض قطبيها واحد وهو ان ينشروا للحقيقة الارض التي نعيش عليها خريطتها المطوية

وهذا كتاب [1] وضعهُ باللغة الانكليزية المستر «لنرد اوتويت» وهو رحّالة مجرّب وعالم راسخ في شؤون الجغرافية والانثروبولوجية. ان حماسته التي تتسم بها كل صفحة من كتابه مقيدة بقيود الحذر العلمي، ولكنهُ في حاشيه يحوّل الجغرافية من علم جامد الى علم حي. فاذا نظرت الى سعة نطاق الكتاب زمناً ومكاناً — على الرغم مما انضت اليه هذه السعة من اهمال بعض الحقائق الاساسية كسعة الاراضي المكتشفة والمسافات التي قطعتها بعوث الريادة المختلفة — والى كثرة ما جمع من الحقائق المشتتة في فصول وابواب منظمة رأيت فيه قصة الريادة من فجر الحضارة الى الآن وكأنها منسابة امامك على شريط من الصور المتحركة.

خذ فصلهُ عن البحر المتوسط. على سواحل هذا البحر وفي جوارها قامت الدول القديمة مصر وفينيقية واشور وشمر وعيلام وكريت والبونان. من مصر قامت اقدم بعثة في التاريخ يقصد الريادة وهي بعثة هانو سنة ٢٧٥٠ ق. م. باحثة عن الثروة وما يكفي حب المغامرة في نفوس اصحابها فوصلت الى مايعرف الآن بالحبشة وعادت بكثير من الذهب والفضة والمر والاخشاب الثمينة. وبعد ما انقضى عليها الفا سنة، اي نحو سنة ٦٠٠ ق. م. اوفد الفرعون نخو

(1) Unrolling the Map : The Story of Exploration by Leonard Outhwaite

أعجب بمئة استكشافية في التاريخ فاستطاعت ان تسافر حول القارة الافريقية في ذلك العهد البعيد وكان هيرودوتوس لم يصدق ما نقله عنها فاكتفى في ذكرها بفقرة قصيرة من تاريخه المشهور. وقد أثبت السير اوتوبت ان وصف الرحلة واتجاهها والشهور التي حصلت رحلها فيها تتفق كل الاتفاق وما يعرف الآن عن تيارات المحيطات والرياح السائدة على سواحل افريقية

وكانت الريادة في عهد الاسكندر ذي القرنين ، جزءاً من اعماله العسكرية . ولكننا مع ذلك مدينون له بكثير من أقدم ما عرفهُ العالم عن البلقان والشرق الادنى وافغانستان وبعض المناطق في شمال الهند . ويقال انهُ كان يستعد لريادة نهر الكنج عند ما أصيب جيشهُ بما حملهُ على النكوص

اما في العالم الجديد ، فيذكر المؤلف الرأي الشائع ان كولمبوس او امبركوس فسبشيوس او عجلان كانوا اول من اكتشف اميركا . ذلك ان مستعمرات من رجال النورس انشئت على برّ اميركا الشمالية في القرن الحادي عشر . قال المؤلف : وفي سنة ١٨٩٨ كان احد المهاجرين السويديين وهو يدعى « اولوف اوهمان » يعمل في حرج قرب بلدة كنستن بولاية منسوتا (احدى الولايات المتحدة الاميركية) فعثر بشجيرة معمَّرة كانت جذورها قد التفت حول حجر وعلى هذا الحجر اثنا عشر سطراً من كتابة غريبة . وقضى باحث يدعى « بالمار هولند » عشرين سنة في البحث الدقيق مع خبراء الحراج والنبات وطبقات الارض والآثار حتى أثبت ان هذه الكتابة نقشت لذكرى انشاء مستعمرة من السويديين والنرويجيين في منسوتا قبل سنة ١٣٦٢ والمرجح ان البعثة التي انشأت هذه المستعمرة كانت البعثة التي اوفدت من قبل الملك ماغنوس اريكسن في سنة ١٣٥٥ لانقاذ المستعمرين النورس الذين استقروا في جرينلندة من الوثنية . وكان الدافع الديني حمل هؤلاء الرجال على التوغل غرباً في فيافي كندا الى ان استقروا في ولاية داكوتا . اصبحت بعد خمسة قرون ، عند كثرة هجرة الاوربيين الى اميركا ، مقرًّا لمعظم المهاجرين الكنديناويين ولعهي منسوتا

في فصول هذا الكتاب ، تتعاقب الصور الاخاذة — ريادة القارات وفيافيها وصحاريها وقممها والنفوذ الى منابع انهارها والتوغل في حراجها وادغالها واقتحام جد التطبين سيراً على الاقدام وبالمزالق وعلى أجنحة الطائرات والبلونات ، والتحليق في الجو الى عشرة أميال والغوص في الماء الى نصف ميل — هنا جميع الاسماء الباهرة في تاريخ الريادة من هانو المصري الى بيرد الاميركي

وكذلك تتوالى الصفحات كما توالت الاعوام والقرون وميامين الرواد يسيرون بعضهم في اثر بعض يحتقرون المشاق ويزأون بالمواصف ، يخفقون آناً ويتصرون آونة فتمت لهم الارض ومشوا في مناكبها . ان صفحتهم لمن اصح الصفحات في تاريخ الانسان ، بل ان حديث اقدامهم وثباتهم وشوقهم الى كشف المجهول قصيدة بليغة تثير في النفس تلك الهزات العالية التي بها يتمجد الانسان